

٣ - صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان في هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير في عمل وأدائه ، بل كان عند رئيس الشرطة في جنائيه وعقابه . فظهر منقلب السحنة انقلاباً دميماً ، شوه تشويهاً وزاد فيه زيادات ورأيتُه مَطْوَط الوجه مطاً شنيعاً ، بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين في وجهه ، بل معلقتان على جبهته . . .

وجعل بضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هذا بابٌ على حدة في الامتحان والبلوى ، وما فيه إلا المثونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعمل في هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين : على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير . « وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان المروور عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو ؟ فقال : الجزء الذي لا يتجزأ على بن أبي طالب عليه السلام . . . فقال له أبو العيلاء محمد : أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى . حمزة جزء لا يتجزأ . . . قال : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ . . . قال : فما تقول في عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين . . . قال : فأى شيء تقول في معاوية ؟ قال : لا يتجزأ

فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا يتجزأ إلى أى شيء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ ، هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذي لا يتجزأ ، (١)

قلت : ورجع بنا القول الى رئيس التحرير . . .

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذي لا يتجزأ اليوم هو فلان : وإن فلانا الآخر يتجزأ مرتين . . . وأن المعنى الذي يبني عليه رأى الصحيفة

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

في هذا النهار هو شأن كذا في عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصور في صيغة تلائم جوع الشعب فتجعله كالخبز الذي يطعمه كل الناس وتثير له شهوة في النفوس كشهوة الأكل ، وطبيعة كطبيعة الهضم . . . وقد رمى إلى رئيس التحرير بحملة الخبر ؛ وعلى أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل التراب دقيقاً أيضاً يُجْعَن ويخبز ويؤكل ويسوغ في الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى في العروق

وإذا أنا كتبت في هذا احتجت من الترقيع والتمويه ، ومن التدليس والتغليط ، ومن الحُب والمكر ، ومن الكذب والبُهتان - إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديق والدهري والمعطل في إقامة البرهانات على صحة مذهب عرف الناس جميعاً أنه فاسد بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة أنه فاسد . وأين ترى إلا في تلك النحل وفي هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكبر ، وأن يجترى وهو موقن أنه يجترى ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقدير من تقدير ، وعمل من عمل ، ومذهب من مذهب ؛ والآفة أنهم لا يستعملون في الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكدة ؛ يأخذونها إذا وجدت وبصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارىء كالحالم يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويلقى اليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يرُد على من أعطاه

قلت : ولكن ما هو الخبر الذي أرادوك على أن تجعل من تراه دقيقاً أيضاً ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذي كتبت فيه لهذه الصحيفة نفسها ، أنقضه وأسفقه وأرد عليه وكان يومئذ جزءاً يتجزأ . . . فلن صنعت اليوم بلاغتي في تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لي ، ولا حاثلاً بيني وبين ذات نفسي - فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ . أه لو وضع الرديو في غرف رؤساء التحرير لسمع الناس . . .

قلت : يا أبا عثمان . هذا كقولك : لو وضع الرديو في غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات

قال : ليس هذا من هذا فان للجيش معنى غير الخندق في تدبير

الوقت ، فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها ، ويتعاطون الجند تعاطى من يلهو به ، ويتلقون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة ، والمباحثة بفكرة الإهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزل والتحقير . وهم كالمصلين في المسجد ؛ فمثل نفسك نوعاً من المصلين إذا اصطفوا وراء الامام تركوه يصلى عن نفسه وعنهم وانصرفوا

قال أبو عثمان : بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لا ثبات له إلا في الموضوع الذى تكون فيه بين منافعها ووسائل منافعها ؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة بحكومة وسلطة وباشاوات وبيكوات وكان من الطبيعى أن يحل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهية لا يكون من الجريدة إلا في موضع قلب الحى من الحى .

ثم استضحك شيخنا وقال : لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب ، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها ، فإذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا : أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال) .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير

فلم يلبث إلا يسيراً ثم عاد متهللاً ضاحكاً وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعى ، وجلس إلى وهو يقول :

يبد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال ، ولم يرفيه استطرافاً ولا ابتكاراً ولا نكتة ولا حجة صادقة ، بل قال كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد ، فإذا نحن زهدنا في الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكمنا بها وقتلنا إنها أفست معنى التقدير الانسانى وتركت من لم ينلها من دوى الجاه والغنى ، يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المزوجة وقتلنا منها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والتفاني لمن يدهم الأمر ، أو وسيلة إلى ما هو أخط من ذلك كما كان شأنها في عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان

المعاش والتكسب وجمع المال ؛ وفي أسرارها أسرار قوة الأمة وعمل قوتها ؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض ، ولا تصترفها العشرة أكثر من الخمسة ؛ وفي أسرارها أسرار وجود الأمة ونظام وجودها

قال أبو عثمان : وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارى المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز ، ثم هى لا تريد أن تذهب أموالها في إيجاده وتنشئته . وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن في تحريكها وتيسير مجراها ، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركاً مميّزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة ، ولا خرجت عن النسق الطبيعى الذى وضعت له ، فإن الشعب تحكمه الحكومة ، وإن الحكومة تحكمها الصحافة ، فهى من ثم لسان الشعب ؛ وإنما يقرأها القارى ليرى كلمته مكتوبة . وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع هو الذى يوجب عليه أن يتابع كل يوم صحيفة اليوم

قال أبو عثمان : فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً ، وحيث يكون كل قارىء للصحيفة كأنه محرر فيها ، فهو مشارك في رأى لأنه واحد من يدور عليهم الرأى ، متابع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هى من مادته ، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت ، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للفكر ، فيلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية ، وتأتى إليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره

وفي قلة القراء عندنا آفتان : أما واحدة فهى القلة التى لا تغنى شيئاً ، وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم ، وزرابة أناس بآخرين ، وتعلق نفاق بنفاق ، وتصديق كذب لكذب . وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنين : وهى أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يلهون به ، أو كالغراغ يلتسون ما يقطعون به

اتفاقاً ، ثم دفعها إلى وقال : اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة .
فقرأت هذه العناوين :

« مسئولية طبيب عن فتاة عذراء . » « مودة الرافعات
الصينيات . » « تخبر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبیبها . »
« هل يعتبر قبول الهدية دليلاً على الحب ، وإذا كانت ملابس
داخلية . . . فهل تعتبر وعداً بالزواج ؟ » « هل يحق للأب أن
يطالب صديق ابنته . . . بتعويض إذا كانت ابنته غير شرعية . »
« بين خطيبتين لشاب واحد . » « بعد أن قص على زوجته أخبار
السيرة . . . لماذا أطلقت عليه الرصاص ؟ » « عروس تأخذ
(شبكة) من شاين ثم تطردهما . » « زوجة الموظف أين ذهبت . »
« لماذا خطفت العروس في اليوم المحدد للزفاف ؟ » « في الطريق -
حب بالإكراه . » « فلانون وفلاننات ، زواج وطلاق ، وأخبار
المراقص ، وحوادث أماكن الدعارة الخ . »

فقال أبو عثمان : هذه هي حرية النشر ؛ ولئن كان هذا طبيعياً
في قانون الصحافة إنه لأثم كبير في قانون الترية ؛ فان الأحداث
والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين
تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا . « وباب آخر من
هذا الشكل فبكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو
ما يصنع الخبر ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فان
قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ - دخل ذلك الخبر إلى متفرقه
من القلب دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً طيباً وطبيعة قابلة
ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لاحيلة
في إزالته

ومتى ألقى إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات في وقت الفراغ
وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و . . . (١)

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

(لها تمة) (طنطا) مصطفى صاري الرافعي

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

الحكم في قصة (الزلب المسكين) تلقينا أرسين حكاً في هذه القضية واستجمع اللجنة
لاختيار من شغف في شرطتنا وهو « احسان الكتابة » ثم نال حكمها
الرافعي

الوسام كالرقعة من جلد الدولة ، يرقع بها الصدر الذي شقوه
وانزعوا ضميره ، اذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب
الذي يحكم لنا . ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذي يحكمون
علينا ، فكنا كمن يتقدم في التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف .
يا أبا عثمان انما هي حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ،
ثم الحقيقة . . . فالفكرة الأولى للصحيفة والفكرة الثانية هي
للصحيفة أيضاً . ومتى جاء الشعب الذي يقول : لا . بل هي
الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة - فيومئذ لا يقال في الصحافة
ما قيل لليهود في كتاب موسى : تجعلونه قراطيس تبدونها
وتخفون كثيراً .

قلت : أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير في
هذه المرة ، فشق عليك ألا تثلبه ، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة .
قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو ، وفي مثل هذا
لا يكون عملك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة) . إن الرجل
اشبه في كلفة : ما وجهها أم رفوعة هي أم منصوبة ؟ وفي لفظة :
ماهي : أعربية أم مولدة ؟ وفي تعبير أعجمي : ما الذي يؤديه من
العربية الصحيحة ؟ وفي جملة : أهي في نسقها أفصح أم يبدلها ؟
إن المعجم هنا لا يفيد شيئاً إلا اذا نطق . . .

ولقد ابتليت هذه الأمة في عهدها الأخير بحب السهولة بما
أثر فيها الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها واستهدافه دونها
للخطر ، فشبها العامة في لغة الصحف وفي أخبارها وفي طريقها
إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة ، وكأنه تثبيت للضعف
والخور ، وأنت خير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته
عالياً أو بازلاً ، فقد تحولت السهولة من شبه العامة إلى نصف
العامة في كتابة أكثر المجلات وفي رسائل طلبة المدارس ، حتى
تبدو المقالة في ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل ما كلة
صغاره ، فقرض عنقوداً من العنب ، فألقاه في الأرض وأثر به
وتمرغ فيه ، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة في عشرين إبرة
من شوكة .

ثم مد أبو عثمان يده فتناول المجلة بما أمامه وقعت يده عليها